فلما كانت أيام جوستنيان الثاني — بعد استِبَاء بنت قسطنطين بعشرين سنة أو يزيد — وبدا للروم أنَّ الدولة العربية في الشام قد أشرفت على الانحلال — أيام عبد الملك[١٠] — لِمَا يتوزَّعُها من أسباب الخلاف وما ينشب فيها من الفتن، كان قسطنطين أول من كتَّبَ الكتائِب الرومية لاهتبال الفرصة السانحة، ودعا الروم إلى التطوُّع للجهاد، وكانت الفرقة التي ألَّفَها من بنيه وبني إخوته ومن شباب أبيدوس أول فرقة رومية وطئت ثغر أنطاكية وأوغلت في أرض الشام، ثم كان الصلح بين عبد الملك وجوستنيان الثاني؛ فارتدَّ الروم مُصحرين أو مبحرين[١١] إلى بلادهم، ولكن قسطنطين لم يرتد حتى أصاب غنائم وأسرى مصفَّدين في الأغلال يسوقهم إلى أبيدوس؛ ولولا أنَّ جوستنيان أمره فأغلظ في الأمر لما عاد حتى يُثخِن في بلاد العرب، ويبلغ من العلم عمَّا آل إليه أمر ابنته التي استباها العرب منذ نَيِّف وعشرين سنة، ولكنه — مع ذلك — قد ارتد بأسارى يرجو أن يبقوا عنده رهائن إلى يومٍ قريب أو بعيد.[١٢]

وكان الشاطيء الشمالي من خليج القسطنطينية قِبلَة الغُزاة العرب في كل غارة، حيث يثوي أبو أيوب الأنصاري؛ يهاجرون إليه لينزلوا عليه ضيوفًا في داره هذه التي اتخذها مَثوًى إلى يوم يبعث الله الموتى، فكانت أبيدوس لذلك طريقًا لهؤلاء الغزاة المغيرين، يُبَيِّتُونها[١٣] برًّا وبحرًا في الذهاب والعودة، ويصيبون من أهلها، ويصيب أهلها منهم؛ فلم تنقطع الغارات عليها صائفة وشاتية، ولم يكف قسطنطين عن النضال!

ثم كانت غارةٌ من تلك الغارات الباغتة، أثخن فيها العرب في الروم إثخانًا شديدًا، واحتملوا أسارى وسبايا؛ وكان من بين السبايا ابنةٌ أخرى لقسطنطين، لم تنضج نضج الأنثى، ولكنها جاوزت حدَّ الطفولة … وافتلذ العربُ فلذةً أخرى من كبِد البطريق المرزَّأ …

هل كان البطريق قسطنطين يجاهد العرب منذ ذلك اليوم ثأرًا لابنتيه السبيتين، أو ثأرًا لوطنه، وكفاحًا عن أمجاد قومه؟

من يدري؟ ولكنه — على أيِّ حاليه — لم يكفَّ عن النضال.

---

[١٠] انظر الفصل الأول.

[١١] في الصحراء أو في البحر.

[١٢] انظر الفصل الثامن.

[١٣] يفاجئونها في الليل.